طفولة الشاذلى بين شبراتنا والقاهرة

قبل أن يلملم الليل عباءته المظلمة ليفسح لخيوط النهار الجديد أن تضىء قريته «شبراتنا»، كان «سعد الشاذلى» تلميذ الابتدائى ينتظر زملاء دراسته على قارعة الطريق، فإذا ما اكتمل عددهم تولى قيادتهم إلى حيث مدرستهم الابتدائية فى «بسيون» التابعة لمحافظة الغربية والتى كانت تبعد عن بلدتهم بما يزيد على ٧ كيلومترات كان عليهم أن يقطعوها سيرا على الأقدام ذهابا وإيابا!

وجاء اختيار الصغار لزميلهم «الشاذلى» للقيام بهذه المهمة لمهارته فى التقدير الدقيق للمسافات وتحديد الزمن اللازم لقطعها بدقة خلال رحلة عنائهم اليومى فى طرق متربة غير ممهدة كانوا يدلفون فيها من طرق ضيقة وقصيرة إلى طرق أطول منها يتبعون «الشاذلى» حتى يصلوا إلى الحقول، وهناك كانوا يسلكون وراءه طريقا مختصرا على أحد جانبيه الحقول وعلى الجانب الآخر قناة ضيقة، يتبعونه فى حذرشديد خوفا من أن تنزلق قدم أحدهم فيسقط فى المياه، وهم يحملون أحلام مستقبلهم البعيد كتبا ثقيلة فى حقائبهم حتى يصلوا إلى بداية الطريق الرئيس المؤدى إلى «بسيون» حيث مدرستهم ليلحقوا بطابور الصباح فى موعده المبكر مع بداية كل يوم دراسى.

ولم يدر «الشاذلى» - الصغير فى هذه السن المبكرة (٨سنوات) - أن قيادته لرفاقه إلى المدرسة تكشف عن قدراته الفطرية على قيادة المجموعات بمهارة، وشغفه بمواجهة المخاطر وحبه للمغامرة، وأن ما يواجهه من عناء فى رحلته اليومية من وإلى المدرسة سيكسبه خبراته الأولى فى مواجهة صعوبات الحياة والتدرب على تحديها، حتى تعلم «سعد الشاذلى» فى هذه المرحلة المبكرة من عمره أن طريق النجاح محفوف فى أغلب الأحيان بالمخاطر ولا يصلح معه الانسحاب أو التراجع، لأن النجاح فى نهاية كل عام كان جائزة عظيمة تستحق العناء الذى يواجهونه كل يوم.

جاء ميلاد «سعد الشاذلى» فى إبريل ١٩٢٢م، وكانت مصر وقتها تموج بأحداث سياسية كثيرة تحت احتلال بريطانى جاثم على المصريين. وأتاحت الظروف العائلية فى بيت أسرته فرصته للتعرف إلى الأحوال السياسية فى البلاد، فاللقاءات الاجتماعية المتكررة التى كانت تنعقد فى بيت والده « محمد الحسينى الشاذلى» وكان من كبار الأعيان فى بلدته «شبراتنا» كانت تضم بعض أقاربه وأصدقاء والده وأعيان بلدته فى لقاءات ودية أسبوعيه منتظمة فيما يشبه المنتدى الاجتماعى، تدور فيه الأحاديث حول الأوضاع السياسية والحراك الثورى الذى كان يدور فى البلاد آنذاك.

وكان «الشاذلى» الصغير شغوفا بمجالس الكبار مستمعا بينهم، يلتقط من حواراتهم ثقافته السياسية الأولى التى كانت تنبه حسه

وعلى عكس اهتمامات الفتيان فى هذه المرحلة المبكرة من أعمارهم ،كان «الشاذلى» شغوفا بالقراءة ينفق مصروفه الشخصى فى شراء الكتب السياسية ليعكف على قرائتها، وينهل من مؤلفات الكاتب (محمد حسين هيكل) ومقالاته السياسية فى مجلة مصر الفتاة ،ومقالات الكاتب إحسان عبد القدوس فى مجلة روزاليوسف التى كانت توصف وقتها بالمقالات النارية لما كان لها من تأثير فى إشعال وجدان المصريين وتبصيرهم بما يدور فى وطنهم من أحداث، وغيرها من القراءات التى أضافت إلى شخصية «الشاذلى» نضجا مبكرا، وأشعلت وجدانه الوطنى تجاه الأحوال السياسية التى كانت عليها مصر آنذاك عام ١٩٣٦م.

وفى إحدى الإجازات التى كان يترقبها الطلاب المغتربون عن بيوت أسرهم، عاد «الشاذلى» من القاهرة ليقضى إجازته الأسبوعية بين أهله وأسرته فى بلدته «شبراتنا» ليجد مفاجأة فى انتظاره.

❑❑❑

الوطنى خاصة بعد معرفته الجذور الوطنية لعائلته، فجده لأبيه كان قد استشهد محاربا مع قوات إسماعيل باشا فى السودان، وبعض أقاربه كانوا مع ثوار ثورة عرابى ضد الخديو والإنجليز، فكان لهذا الكشف لجذوره العائلية أثر فى تشكيل وجدانه الوطنى، لينتقل بمرور الوقت بفكره الجديد إلى عالم الكبار وأحلامهم الوطنية لمصر، فما انقضت سنوات طفولته الأولى بانتهاء دراسته الابتدائية بنجاح إلا وكان قد تعلم من لقاءات الكبار حب مصر ومعنى التضحية من أجلها، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته ينتقل فيها إلى التعليم الإعدادى بالقاهرة بعيدا عن بلدته وأهله، ليصنع نجاحه بنفسه فى أول تجربة مع الغربة.

سنة أولى وطنية

فى القاهرة هيأ له والده حياة طيبة، تسهل عليه غربة صبى ابن الثانية عشرة، وتساعده على النجاح خلال سنوات متتالية فى انتظاره كان عليه أن يقضيها فى التعليم الإعدادى والثانوى (التوجيهى) بالقاهرة. وساعده ما كان يتميز به من الانضباط والالتزام الجاد فى دراسته على تحمل مسئوليته الدراسية والشخصية بنجاح عاما وراءه أعوام حتى أنهى تعليمه الإعدادى وانتقل إلى التعليم التوجيهى (الثانوى).